مختـــــــارات
من المجلة الدولية
للصـليب الأحـمـر

الرهائن :
قضية ظلت حاضرة عبر العصور

بقلم: إيرين هيرمان ودانيال بالميري(*)

د. "إيرين هيرمان" مدرسة في جامعة جنيف: متخصصة في تاريخ سويسرا وروسيا. و"دانيال بالميري" مسؤول البحث التاريخي في اللجنة الدولية للصليب الأحمر: ويتناول عمله تاريخ اللجنة الدولية وتاريخ النزاعات.

ملخص:

بالرغم من أن ممارسة احتجاز الرهائن كانت تتكرر على مر العصور، إلا أن الرهائن أنفسهم لم يحظوا إلا بقدر قليل من التحليل. في التصنيف التقليدي يميز بين نوعين مختلفين من الرهائن: الرهائن الطوعيون، وهو الشكل الذي كان منتشرا في النظام القديم قبل الثورة الفرنسية، عندما كان أفراد من ذوي المنزلة الرفيعة يسلمون أنفسهم لسجانين كرماء ضمانا لتنفيذ المعاهدات تنفيذا صحيحا؛ والرهائن غير الطوعيين والذين يعتبر احتجازهم إجراء عادياً في الحروب الشاملة، حيث يُحتجز أفراد على نحو عشوائي ومن دون أية أسباب باعتبارهم مرهونات حية – من أجل التوصل إلى سيطرة عسكرية حاسمة. ويعد وضع "الرهينة" اليوم مزيجًا من الفئتين حين تصلان إلى أبعد الحدود. فمع أن الرهائن يُختارون إما لأسباب مالية أو رمزية أو سياسية، فإنهم يتعرضون بشكل عام لمعاملة سيئة.

(*) النسخة الأصلية للمقال متوفرة باللغة الفرنسية على الموقع التالي: <http://www.cicr.org/fre/revue>

وهم في الواقع انعكاس وكذلك أداة مميزة لمفارقة أخلاقية كبرى هي التناقض بين العولمة المتنامية للمبادئ والقيم الأوروبية والأمريكية، والمعارضة الناشئة عنها - هذه المعارضة التي تستخدم تحديدا التزام الغرب بالقيم الديمقراطية والإنسانية. وهكذا تصبح الرهينة في أعين أهل بلدها التجسيد بعينه للضحية البريئة، وهي صورة مزعجة ومؤرقة.

يحتل الرهائن وضعًا خاصًا في سجل ضحايا الحرب. فهم أولا: لا يمثلون إلا عددًا ضئيلاً من الأشخاص المتضررين من العنف المسلح[1]. وباستثناء بعض الحالات الخاصة التي يمكن أن يؤخذ فيها مئات الأشخاص كرهائن - كما حدث على سبيل المثال أثناء حرب الخليج عام 1991، أو في السفارة اليابانية في ليما في 1997/1996، أو مؤخرا في إحدى المدارس في شمال "أوسيتيا" في سبتمبر/أيلول 2004 - لا يتجاوز عدد الرهائن في أغلب الأحيان أعداداً قليلة. ولكن هناك تناسبا عكسيا بين الاهتمام الذي يثيره الرهائن وبين عددهم، ذلك أن رهينة واحدة يمكن أن تصبح مركزاً لاهتمام الرأي العام وتعبئته. فهل يرجع ذلك إلى أن احتجاز الرهائن، بالوحشية التي يفترضها، يمتلك نوعا من الجاذبية الغريبة؟ هل بسبب درجة البراءة العالية التي يتمتع بها الضحايا، والتي غالبا ما تعززها عوامل مثل العمر أو الجنسية، أو المهنة والتي تظهر أن لا علاقة لهم بالأحداث التي دفعت إلى احتجازهم؟ أم لأن الظلم الذي يقع على الرهينة الفرد يكون شديد الوطأة على اللاشعور الجماعي وكأنه تهديد كامن للفرد وللجميع؟ أم بسبب النهاية المفجعة التي تنتظر بكل أسف بعض الضحايا وتضفي عليهم صفة الشهداء؟

أيا كانت الإجابة عن هذا السؤال، ورغم الاهتمام الذي تثيره، تبقى الرهينة نفسها صورة لا يُعرف عنها إلا القليل. ويظهر ذلك في المجال القانوني، حيث توجد مفارقة كبرى بين غزارة المعلومات التي تصف عمليات أخذ الرهائن في التشريعات الوطنية والمواثيق الدولية، وإغفال التعريف الدقيق للرهينة[2]. وبسبب ذلك - أو ربما نتيجة له - لم يُستكشف كثيراً تاريخ الرهائن أنفسهم. ففي الواقع لم يخصص لهذه الفئة من الضحايا التي سجل وقوعها منذ قديم الأزل، إلا عدد نادر من الدراسات الخاصة. وتتمحور الدراسات الموجودة فعلاً حول التاريخ القديم والعصور الوسطى بشكل أساسي؛ ويبدو أنه لا توجد دراسات تاريخية للمشكلة على المدى الطويل[3].

---

(1) يناقش هذا المقال احتجاز الرهائن في حالات النزاع المسلح فقط. وهو يميز بين احتجاز الرهائن والاختطاف الذي يكون الدافع له اعتبارات شخصية ومالية فقط.

(2) لذلك، لا تتضمن اتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949، ولا بروتوكولاها الإضافيان لعام 1977 تعريفا لـ "الرهائن" (ولا في الواقع لاحتجاز الرهائن). أما الاتفاقية الدولية لمناهضة أخذ الرهائن الموقعة في نيويورك في 18 ديسمبر/ كانون الأول 1979 ،فتعرف الذي يأخذ الرهائن بأنه "أي شخص يقبض على شخص آخر (يشار إليه فيما يلي بكلمة "الرهينة") أو يحتجزه ويهدد بقتله أو إيذائه أو الاستمرار في احتجازه من أجل إكراه طرف ثالث، أي دولة أو منظمة دولية حكومية، أو شخص طبيعي أو اعتباري، أو مجموعة من الأشخاص، على القيام أو الامتناع عن القيام بعمل معين كشرط صريح أو ضمني للإفراج عن الرهينة". إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن بموجب المادة 12، لا تسري هذه الاتفاقية على عمليات أخذ الرهائن التي تتم أثناء النزاعات المسلحة، والتي تلزم فيها اتفاقيات جنيف الدول الأطراف تسليم مرتكب الجرم المزعوم أو محاكمته .

(3) ثغرة في الأبحاث التاريخية يشير إليها المؤرخون أنفسهم، انظر "فيليب كونتامين" في:

Autobiographie d'un prisonnier-otage : Philippe de Vigneulles au château de Chauvency, Sylvie Caucanas, Rémy Cazals, Pascal Payen (dir.), Contacts entre peuples et cultures. Les prisonniers de guerre dans l'histoire, Éditions Privat, Toulouse, 2003, p. 39.

وربما يُعزى الافتقار إلى تعريف دقيق للرهينة إلى التباس لغوي يؤدي إلى تفسيرات مختلفة، إذ يرى بعض علماء اللغة أن مصطلح "رهينة" باللغة الإنجليزية hostage مشتق مباشرة من الكلمة اللاتينية[4] hospes التي تعني "ضيف"، بينما يرى آخرون أنها مشتقة من كلمة obses من الفعل obsidere بمعنى "يحاصر" – وتعني حرفيا "الشخص الموضوع تحت النظر". ويعطي هذان المصدران مدلولين مختلفين، وربما متباينين، لمفهوم "الرهينة" ويقابلان الانقسام التقليدي بين الرهائن الطوعيين وغير الطوعيين[5].

ولا يكون هذا التمييز تمييزاً صارماً بالضرورة، إذ إن فئتي الرهائن غالبا ما تتداخلان في الوقائع الفعلية وفي الزمن. إلا أن هذا التمييز يوفر إطارا تحليليا قيما لكل من يسعى إلى تتبع تاريخ وضع الرهائن، ووظيفته، واستخدامه، وتطوره على مدار القرون. وأهم من ذلك أن هذا التمييز يساعد على إلقاء الضوء على التغير الذي طرأ على وضع الرهائن منذ نهاية القرن العشرين، عندما بدا أن أخذ الرهائن يتسم بدوافع وحاجات منافية للعقل تتعارض مع الطابع الأكثر عقلانية الذي كانت تتمتع به في الأزمنة الأقدم.

الرهائن الطوعيون

كان لمفهوم "الرهينة" في الأصل وكما كان يُفهم في اللغة الفرنسية منذ القرن الحادي عشر[6]، تفسير محدد ضيق. فقد ابتكرت الرهينة بشكل أساسي كضمان يُقدم إلى العدو المنتصر – أو حتى إلى الحليف – من أجل كفالة تنفيذ وعد أو معاهدة، أو كرمز للخضوع من جانب الطرف المهزوم. وكانت هذه الممارسة هي العرف بالفعل في مصر القديمة، عندما كان يُستخدم رهائن من ذوي المراتب الرفيعة كعهد على إخلاص الممالك التابعة[7]. وعلى مر التاريخ، كان الانتماء إلى أرقى الطبقات الاجتماعية شرطا لا غنى عنه لقبول شخص كضمانة للمعاهدة. وتبنى الإغريق هذا الإجراء وطوروه،

---

(4) كانت تعني كلمة Hostage في اللغة الفرنسية القديمة "سكن أو مكان إقامة"، وكانت تعني في الأصل عبارة : prendre en ostage "أن تأخذ إلى البيت الشخص الذي سوف يتخذ كضمان لتنفيذ عقد". وأصبحت تعني في ما بعد الشخص نفسه، أي "الضيف" الذي يحتفظ به المرء. "بول روبرت":

Paul Robert, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Vol. VI, Le Robert, Paris, 1990, p. 1012.

(5) أنظر على سبيل المثال:

H. Wayne Elliott, "Hostages or prisoners of war: War crimes at dinner", Military Law Review, No. 149, 1995 (حيث يتحدث المؤلف عن "الرهائن الحقيقيين" كوصف للرهائن الطوعيين، و"الرهائن غير المباشرين" كوصف للرهائن غير الطوعيين)

وانظر أيضا:

Claude Pilloud, "La question des otages et les Conventions de Genève", Revue internationale de la Croix-Rouge, No. 378, June 1950; Adam J. Kosto, "L' otage comme vecteur d' échange culturel du IVe au XVe siècle", Sylvie Caucanas, Rémy Cazals, Pascal Payen (dir.), مصدر سابق (الحاشية رقم 3)

(6) ظهرت هذه الكلمة عام 1081 في الملحمة الشعرية بعنوان: Chanson de Roland

(7) جوناثان ف. فانس (محرر)، في:

Encyclopedia of Prisoners of War and Internment, ABC-Clio, Santa Barbara, Denver, Oxford, 2000,

حيث أفادهم أيضا اللجوء إلى أخذ الرهائن في فرض وجهات نظرهم السياسية على الآخرين. ويظهر ذلك في حالة "فيليب الثاني" ملك مقدونيا، الذي كان الهدف من وجوده رهينة في مدينة "طيبة" منع أهل مقدونيا من اتخاذ مواقف عدائية ضد هذه المدينة(8). كما استخدم الرومان الأسلوب نفسه في ما بعد، سواء لمصلحتهم أم ضدها. وفضلا عن ذلك، فإن حالة الجنرال الروماني "أيتيوس" الذي قُدم كرهينة أولا في شبابه إلى القوط الغربيين ثم إلى "الهون"، توضح كيف علت هذه الممارسة فوق تقسيم الحضارات إلى "متمدنة" و"بربرية".

ولا تفتقر العصور الوسطى إلى الأمثلة الشهيرة عن استمرار هذا العرف، بدءًا من مواطني مدينة "كاليه" الأحرار الذين قدموا أنفسهم كرهائن في عام 1347 إلى "إدوارد" الثالث مقابل إنقاذ مدينتهم من الدمار. أما الكونت "جان دانجوليم" الذي سُلم إلى الإنجليز في عام 1412 بموجب معاهدة "بوزانسيه"، فقضى ثلاثة وثلاثين عاما رهينة لديهم. وكان تقديم الرهائن في أوروبا الشرقية ظاهرة تقليدية كذلك، كما يتضح من حياة "جان كاستريوتي" (المعروف أيضا باسم "اسكندر بك"). حيث سُلم اسكندر بك المنحدر من سلالة ملكية إلى الأتراك وهو في سن صغيرة كدليل على وفاء شعبه إزاء الباب العالي، أي حكومة العثمانيين. وتربى وفقاً للتقاليد الإسلامية، ووضع بسالته الحربية في خدمة السلطان مراد الثاني وكان المفضل لديه حتى انقلب ضد سيده السابق وأصبح بطل حرب الاستقلال الألبانية(9).

ودامت ظاهرة الرهائن الطوعيين حتى القرن الثامن عشر. ففي نهاية حرب الخلافة النمساوية وبموجب شروط معاهدة "إكس لاشابل" عام 1748، بقي رهائن من النبلاء الإنجليز في باريس، بناء على كلمة شرف، في انتظار إعادة ممتلكات معينة في شمال أمريكا إلى فرنسا.

وغالباً ما كان وضع الرهينة الطوعية مشابها لوضع الضيف، إذ كان أقرب إلى معنى كلمة hospes. وبوصفهم ضيوفا، كان الرهائن الطوعيون يتمتعون بنمط عيش ممتع مماثل للذي تركوه في بلادهم (وفي بعض الأحيان يتمتعون أيضا بحرية حركة كبيرة)، بما يتلاءم مع مكانتهم الاجتماعية. وواقع أن أغلبهم كان من طبقة النبلاء يفسر المعاملة الراقية التي كانوا يحظون بها في أغلب الأحيان. وفضلا عن ذلك، لم يخش هؤلاء الرهائن أبدا على حياتهم، لأنهم سُلموا طوعا. وبموجب قواعد الفروسية كان يعتبر ذلك ضمانة كافية لاحترام شروط العهد. وبهذا لم يكن من المستغرب أن تتوطد الروابط بين الرهائن وآسريهم والتي كان من الممكن أن تتخذ شكل علاقات صداقة تعلو فوق الاختلافات الثقافية(10).

---

(8) Pierre Ducrey, *Guerre et guerriers dans la Grèce antique, Office du Livre, Fribourg, 1985, p. 242.*

(9) عرض إسماعيل قداري أحداث هذه الفترة على شكل رواية رومانسية في كتابه بعنوان:

Les tambours de la pluie, Gallimard, Paris, 1979 (in French translation).

(10) Franco Cardini, "I captivi cristiani frutto di guerra santa "crociata"; nei luoghi santi", in Giulio Cipollone (ed.), *La Liberazione dei "captivi" tra cristianità e islam. Oltre la crociata e il Gihad. Tolleranza e servizio umanitario*, Archivio Segreto Vaticano, Vatican City, 2000, p. 326.

يختلف هذا النمط من العلاقة عن أعراض ستوكهولم الشهيرة التي تظهر بعد فترة أسر طويلة نسبيا.

ومع نهاية النظام القديم بدأ اللجوء إلى عرف تقديم الرهائن طوعا ينحسر، ونجد الحالات القليلة التي وقعت بعدها في التاريخ الاستعماري، مثل حالة زعماء منطقة "كازامانس" العليا الذين سلموا أربعة من أبنائهم كضمان لمعاهدة السلام التي أبرمت مع فرنسا عام 1861(11). ومنذ ذلك الحين، اتخذت الضمانات التي كانت تقدمها دولة مهزومة لتنفيذ المعاهدات شكل الأراضي عوضا عن الرهائن الطوعيين من الطبقات العليا في السلطة. وهكذا، نصت اتفاقية "فرانكفورت" المؤرخة 10 مايو/آيار 1871 على احتلال القوات البروسية المؤقت لعدة مناطق من شمال فرنسا إلى أن يدفع تعويض عن تكلفة الحرب. وكانت قد اتخذت إجراءات مماثلة قبل ذلك من كل من جيش الاتحاد السويسري بعد حرب "سوندربوند" لعام 1847، والقوات الشمالية بعد الحرب الأهلية الأمريكية التي وقعت ما بين الأعوام 1861 - 1865، والتي احتلت الأراضي لضمان امتثال الطرف المهزوم لشروط السلام المفروضة عليه. وفي كل هذه الحالات، كان السكان المقيمون يرون أنفسهم، وينظر إليهم الآخرون، باعتبارهم رهائن تحت رحمة قوات الاحتلال.

من "الضيف" (hospes) إلى "الرهينة"(obses)

كان ظهور الأراضي ذات الحدود الواضحة بعد نهاية النظام القديم، ومن ثم (احتمال) أن يؤخذ السكان رهائن علامة فارقة في ممارسة احتجاز الرهائن، والتي تأثرت هي نفسها بتحولات بارزة. فمنذ منعطف القرن الثامن عشر، حل مفهوم جماعي وموحد محل فكرة السيادة المجزأة التي كان يجسدها أفراد. ومع نشوء الدولة القومية، لم تعد السيادة تجد رمزاً لها في عدد من الأفراد المعزولين، بل في المواطنين ككل. وفي هذه الأحوال، فإن تقديم الرهائن استنادا إلى الإقرار المتبادل – من كل من المانح والمتلقي – بالقيمة الذاتية والخاصة للرهينة المختارة فقد مبرر وجوده لأن جميع الأفراد متساوون نظريا في الدولة القومية، ولهم القيمة نفسها ويمكن استبدال بعضهم بالبعض الآخر. وفي المقابل، أصبح أخذ الرهائن منذ ذلك الحين مبررا تماماً على أساس أن أي شخص يمكنه أن "يلعب" هذا الدور.

هذا وشهد أيضاً النزاع نفسه تطوراً. فبعد فترة قصيرة من الهدوء(12)، أصبحت المعارك من جديد أكثر عنفاً، خلال الثورة الفرنسية في البداية، وفي عهد إمبراطورية نابليون بعد ذلك، إلى أن بلغت

---

(11) Christian Roche, *Histoire de la Casamance. Conquête et resistance: 1850-1920,* Éditions Karthala, Paris, 1985, p. 112.

(12) Irène Herrmann, Daniel Palmieri, *"Les nouveaux conflits: une modernité archaïque?"* *International Review of the Red Cross*, Vol. 85, No. 849, March 2003, pp. 37 ff.

تدريجياً حدة الحرب الشاملة(13). وفي إطار أكثر المواجهات عنفا، حيث تكون الأعمال العدائية هي شكل العلاقة الوحيد الممكن بين الأطراف المعادية، لا يعود تقديم الرهائن طوعا ضمانة للاحترام المتبادل مسلكا ملائما. وقد أدرك المتحاربون أنفسهم عبثية مثل هذا المسلك، مما دعا المحامي الأمريكي "فرانسيس ليبر" أن يقول في مدونته الشهيرة التي أعدها أثناء إحدى الحروب الشاملة الأولى في العصر الحديث، وهي الحرب الأهلية الأمريكية: "الرهينة هي شخص يقبل بوجوده كضمانة لتنفيذ اتفاق أُبرم بين المتحاربين أثناء الحرب، أو نتيجة الحرب. والرهائن نادرون في العصر الحديث(14).

وليس من العسير في هذا الإطار فهم لماذا لم يعد الرهائن يُقدّمون، بل يُؤخذون: لقد توافق هذا التطور مع تطور قانون الحرب(15) ومع تأكيد المُثل المستمدة من حقوق الإنسان. ويعني هذا، من جانب، أن وضع الرهائن لم يعد يتوقف على نتائج الأعمال العدائية، بل على النزاع نفسه. وفوق كل هذا، لم يعد الأمر مسألة ضيافة hospes بل ارتهان obses، بمعنى آخر ارتهان الشخص الواقع تحت المراقبة الذي يتحدد وضعه في الغالب نتيجة لقرارات أحادية أو قاطعة، والذي لا يختلف أساساً احتجازه، من الناحية المادية البحتة، عن الأسر. أما من الناحية النفسية، فالتغير لا يقل قساوة: فبينما كان وضع الضيف hospes يتميز كما رأينا بعدم وجود خطر، يتسم وضع الرهينة obses، على النقيض من ذلك، بوجود تهديد حقيقي مسلّط على الشخص المأسور. وهذا التهديد بعينه هو الذي يحدد الهدف من وضع الرهينة المحفوف بالمخاطر، حيث يكون عرضة للمعاملة القاسية، وربما للقتل، كما كان الحال لفترات طويلة مع أي شخص يؤسر أثناء الأعمال العدائية(16).

الرهائن غير الطوعيين

يخضع الرهائن غير الطوعيين بالأساس إلى الظروف المعيشية نفسها التي يخضع لها أسرى الحرب: إلا أن هناك سمتين أساسيتين تميزانهم عن غيرهم من مواطنيهم الأسرى يمكن ملاحظتهما في عدد كبير من الممارسات.

---

(13) *Jean-Yves Guiomar, L'invention de la guerre totale XVIIIe - XXe siècle*, Le Félin, Paris, 1994

14) إدارة الحرب الأمريكية، أوامر عامة رقم 100.

General Orders No. 100. Instructions for the Government of the Armies of the United States in the Field, Washington, D.C., 1863, Art. 54 (emphasis added).

(15) قبل أن تدخل حيز التنفيذ اتفاقيات جنيف لعام 1949 التي تحظر رسميا هذه الممارسة، لم يمنع القانون الدولي هذا الأسلوب، لاسيما إذا كان له ميزة عسكرية (مثل قضية الرهائن، الولايات المتحدة ضد "ويلهيم ليست"، 1950 (انظر H. H Wayne Elliott. مصدر سابق (الحاشية رقم 5)). ويعد أخذ الرهائن اليوم واحدا من أخطر الانتهاكات لاتفاقية جنيف الرابعة (المادة 147).

(16) من المؤكد أن وضع الرهائن الطوعيين يحتاج إلى تحديد صفته كما أشار إليه "أدم ج. كوستو"، لأن تقديمهم كان يتم في العادة بالإكراه. ولكن "لكي يُستخدم تقديم الرهائن هذا لضمان تنفيذ اتفاقات، يتعين على الطرفين الإقرار بهذا الوضع للرهينة لذلك يختلف الرهائن "الطوعيون" عن المحتجزين وأسرى الحرب." Adam J. Kosto, *"L' otage comme vecteur d' échange culture..."* وللاطلاع على وجهة نظر مماثلة أنظر أيضاً:

Franco Cardini, "*I captivi cristiani frutto di guerra santa 'crociata'* " مصدر سابق (الحاشية رقم 10) ص 823.

الاختلاف الأول هو القيمة الخاصة التي يمثلها هؤلاء الأفراد بالنسبة إلى آسريهم. وكما هو الحال مع الرهائن الطوعيين، يمكن استخدام الرهائن غير الطوعيين كأداة استراتيجية لإجبار العدو على تقديم تنازلات. وقد استخدمت أثينا الأسرى من أهل اسبرطة بعد معركة "سفاكتريا" (425 ق.م)، أثناء حرب "البيلوبونيز" الثانية (431 – 404 ق.م) لتحييد التفوق العسكري للمدينة "اللسيديمونية" أثناء فترة احتجازهم التي دامت أربعة أعوام[17]. وقد تكون القيمة بالنسبة للخاطف مادية فقط[18]. وفي هذه الحالة تتحول الرهينة غير الطوعية إلى سلعة عالية القيمة يأمل المُختطف في الحصول على سعر جيد لها، لذلك يعتني بها في انتظار دفع الفدية[19]. وفضلا عن ذلك، تتغير هذه المعاملة حسب نَسب الرهينة: فكلما علت منزلتها، لقيت معاملة أكرم وأفضل. وقد أُقر في وقت مبكر هذا التمييز الكيفي، الذي يميل إلى جعل الرهينة Obses أقرب إلى الضيف hospes. وهكذا عامل صلاح الدين "غي دي لوزينيان" ملك القدس الذي أسره العرب في معركة حطين (1187) معاملة تليق بمنصبه[20].

ويكمن الاختلاف الثاني في القضاء التدريجي على التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين، لأنه من المرجح دائما أن يؤخذ الرهائن غير الطوعيين من بين السكان المدنيين. وتجري هذه الممارسة جنبا إلى جنب مع احتلال الأراضي أو ضمها، وتُستخدَم لضمان القانون والنظام وبالتالي أمن قوات الاحتلال. ويمكن أن تطبق مجموعة من الطرق المتنوعة تأخذ في الحسبان القيمة الشخصية للرهينة باعتبارها ثروة مالية أو وسيلة للضغط، وغالبا ما ينتهي الأمر بإبطال بعضها البعض، ويفضي إلى مطالب متزايدة ومطالب مضادة.

ويجري عادة أسر الرهينة في بلدته أو قريته، ويكون رمزا للتهديد الذي يجثم فوق المجتمع كله. وربما يتم ترحيله كما فعل نابليون الأول عندما دخل فيينا عام 1809، فأسر العديد من ذوي المقام الرفيع من المدينة كرهائن وأرسلهم قسرا إلى فرنسا[21]. ويمكن أن تؤخذ الرهائن لضمان حياة رهائن

---

(17) استخدم هذا الأسلوب على نطاق واسع في الحرب الأهلية الأمريكية، انظر:

Webb B. Garrison, *Civil War Hostages: Hostage Taking in the Civil War*, White Mane Publishing Company, Shippensburg, PA, 2000).

وفي وقت أقرب، حادثة احتجاز طاقم السفينة الأمريكية USS Pueblo، التي رست وحوصرت على يد أسطول كوريا الشمالية في يناير/ كانون الثاني 1968، واستغل هذا العمل كدعاية ضد حكومة الولايات المتحدة في أوج حرب فيتنام، حتى تم إطلاق سراح السفينة وطاقمها بعد 11 شهرا.

(18) في هذه الحالة لا يوجد شيء يميز حالة الحرب من حالة السلم التي يجري فيها نفس النوع من الصفقات.(انظر على سبيل المثال المقالة التي كتبها "فيليب كونتامين" *"Autobiographie d'un prisonnier-otage: Philippe de Vigneulles au château de Chauvency"* مصدر سابق (الحاشية رقم 3).

(19) جعلت هذه الملاحظة المحامي العالمي الشهير "هوغو غروشيوس" يدافع عن وجوب معاملة جميع الأسرى – في الدول الحديثة التي تحترم قانون الأمم – معاملة الرهائن ومن ثم المطالبة بفدية.

(20) Giuseppe Ligato, "Saladino e i prigionieri di guerra", Giulio Cipollone (ed.), مصدر سابق (الحاشية رقم 10)، ص 650.

(21) Charles-Otto Zieseniss, "A Vienne en 1809: extraits du Journal du comte Eugen von Czernin und Chudenic à propos de l'occupation française", *Revue du souvenir napoléonien*, No. 376, April 1991, pp. 2-18.

لجأت ألمانيا مجددا إلى هذا الأسلوب في الحرب العالمية الأولى فقامت بترحيل مئات المدنيين من المناطق المحتلة في شمال فرنسا إلى الأراضي الألمانية وأيضا إلى روسيا. انظر:

Annette Becker, *Oubliés de la Grande Guerre. Humanitaire et culture de guerre*, Éditions Noêsis, Paris, 1998, pp. 27-88.

كما فعلت جيوش القيصر الشيء نفسه في بداية النزاع في بروسيا الشرقية، حيث أرسل الرهائن الألمان إلى سيبيريا. وغني عن القول أن ترحيل الرهائن استخدم على نطاق واسع أيضا في الحرب العالمية الثانية.

آخرين في أيدي العدو، مثلما جرى في واحد من أشهر الأمثلة أثناء "كوميونة باريس"، وهي العصيان المسلح الذي قامت به باريس ضد الحكومة الفرنسية. ففي الخامس من أبريل/نيسان 1871 قررت الكميونة أن الأشخاص المتهمين بالتواطؤ مع حكومة "فرساي" سيعتبرون رهائن لدى سكان باريس، ويمكن أن ترديهم فرق إطلاق النار إذا ما أُعدم أحد أسرى الحرب من الكميونة أو أحد المؤيدين لها. واحتُجزت على هذا الأساس 74 رهينة، لاسيما من بين رجال الدين - بمن فيهم رئيس أساقفة باريس. وبعد فشل العروض التي قُدمت لتبادل الأسرى، وفي مواجهة المذابح التي تعرض لها الجرحى والأسرى على يد مؤيدي حكومة فرساي، أعدمت الكميونة ستة رهائن أثناء ما أطلق عليه اسم "الأسبوع الدامي"(22).

ويمكن أيضاً استخدام الرهائن غير الطوعيين كـ"دروع بشرية" لحماية قوافل العدو العسكرية أثناء تحركها. وكان الألمان هم من اخترعوا هذا النهج عندما استخدموا للمرة الأولى في الحرب التي وقعت عامي 1870-1871 ما أطلق عليه اسم الرهائن "المرافقين". واحتذت القوات البريطانية في ما بعد بهذا الأسلوب للضغط أثناء حرب "البوير" (1899 - 1902) التي اندلعت بعد خلاف حول امتياز النقل بالسكك الحديدية. كما كان يتم اللجوء إليه من حين إلى آخر أثناء الحربين العالميتين. فعلى سبيل المثال، أثناء الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)، وضع الإنجليز الرهائن (من العسكريين هذه المرة) من ضباط البحرية التابعين للرايخ الألماني على متن السفن الإنجليزية للإثناء عن ضربها بالطوربيد والقنابل على يد الألمان.

وأخيرا، أصبح أيضا احتجاز الرهائن وسيلة قمع تستخدم لمعاقبة من تسوّل له نفسه زعزعة النظام القائم، أو في الحالات الأكثر خطورة، من يشُنُّ هجمات تهدد حياة القوات المحتلة. ويتوقف مصير الرهينة هنا على تسليم "المذنبين" في عملية تبادل تحدد حياة أو موت الفاعلين الأساسيين. أما في الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945) فهنالك الكثير من الأمثلة المحزنة التي تؤكد على افتقار هذا الإجراء إلى العدل، مثل مذبحة "فوسي أردياتين" على سبيل المثال في مارس/آذار 1944 والتي أطلقت فيها القوات الألمانية النار على 325 رهينة إيطالية انتقاما لاغتيال أحد الضباط النازيين(23).

بين "الضيف" (hospes) و"الرهينة" (obses)

لم تضع نهاية الحرب العالمية الثانية ونبذ فكرة الحرب الشاملة نهاية لاحتجاز الرهائن، بل سجلت فقط تحوله تحولاً طفيفاً(24). فمنذ سقوط الثنائية القطبية التي اتسمت بها الحرب الباردة في أواخر

(22) أحيت السلطات الألمانية هذا الإجراء في أثناء الحرب العالمية الثانية فاعتقلت رعايا هولنديين في هولندا ردا على احتجاز الرعايا الألمان في الهند الشرقية الهولندية. انظر "كلود بييو"، مصدر سابق، (الحاشية رقم 5)، ص 433.

(23) Alessandro Portelli, *L' ordine è già stato eseguito. Roma, le fosse ardeatine, la memoria, la storia*, Donzelli, Rome, 2001 (English *edition: The Order Has Been Carried Out: History, Memory and the Meaning of a Nazi Massacre in Rome, Palgrave Macmillan, London, 2004)*.

(24) تنتمي الحرب الأهلية في كولومبيا بلا شك إلى هذه الفئة الأخيرة، حيث يوجد عدة مئات من الرهائن في يد المعارضة المسلحة، ولعل أكثرهم شهرة هو السياسية "إنجريد بيتنكورت" التي اختطفت على يد القوات المسلحة الكولومبية الثورية في فبراير/شباط 2002.

الثمانينيات وأوائل التسعينيات، انتشرت أشكال مختلفة من الحروب في أنحاء المعمورة. وتتميز الأشكال المختلفة لهذه الحروب الجديدة التي جمعت تحت المصطلح العام: "النزاعات الجديدة"، بتفاوت واضح بين القوى المشاركة فيها، وبالعنف الهائل الذي يطلق له العنان ضد السكان المدنيين[25]. ويظهر هذا التباين والعدوان أيضا في عمليات أخذ الرهائن.

وفي بعض حروب اليوم، سواء أكانت نزاعات مشتعلة (الشيشان) أم عمليات عدائية معلقة (مثل نزاع ناغورني – كاراباخ)، تبدو عمليات أخذ الرهائن عملا معتادا إلى حد بعيد، وليست أمرا استثنائيا، حتى أن البعض لا يتردد في اعتبارها نشاطا قانونيا مماثلاً لتجارة المواد الخام. وفي ما يتعلق بحرب العراق على سبيل المثال، ألا يُشار من وقت لآخر إلى "صناعة الاختطاف[26]"؟ قد تكون المصطلحات المستخدمة استفزازية إلى حد ما، ولكنها على الأقل توضح اتساع هذه الظاهرة وتكرارها، وتبين في الوقت نفسه التطور المزدوج الذي شهدته مؤخرا.

يبدو في الواقع أن المصطلح يعني – بما يتفق مع مفهوم "الضيف" (hospes) – أن رهائن اليوم استعادوا قيمتهم كأفراد. والواقع أن وضع الرهائن المعاصرين يختلف عما كان سائدا وقت شيوع الحرب الشاملة، لأنه لم يعد يقبض عليهم عشوائيا أثناء غارات. وهم يُستخدَمون أحياناً، كما في العصور الوسطى كعملة يتم تبادلها مقابل فدية. وقد أصبح اللجوء إلى هذا الأسلوب شائعاً في دول مثل العراق وكولومبيا ويتعلق عموماً برعاياهما. وفي حالات أقل شيوعاً ولكنها تلقى اهتماما إعلاميا أكبر يمكن أن تكون قيمة الرهائن رمزية أكثر منها مالية. وينظر إليهم في هذه الحالة كوسيلة للضغط على "عدو" خارجي.

إلا أن من الممكن في هذا السياق الخاص، ملاحظة تغيير جذري في مفهوم قيمة الرهائن تحديداً، الأمر الذي يغير بدوره من وضعهم، لأن معارك اليوم غير المتكافئة تعني أن الرهائن المعاصرين لم يعودوا "ضيوفا" لدى آسريهم. وعلى المستوى النفسي، فُقد مبدأ التبادلية، لأن الرهينة "الجديدة" لم يعد يُنظر إليها على أنها مساوية في القيمة لما يراد من احتجازها أو لما يجب تقديمه مقابل الإفراج عنها . أما على المستوى المادي فهناك معايير موحدة لظروف الاحتجاز – بغض النظر عن المستوى الاجتماعي – حيث تكون في الغالب أقسى كلما ارتفعت منزلة الرهينة.

ومع ذلك ورغم أوجه التشابه، فإن الرهائن "الجدد" لا يصنفون ضمن فئة "المرهونات" obses لأنهم لا ينتمون بالتحديد إلى "العدو"، بل على العكس من ذلك، فأشخاص مثل "أريان يركيل"، رئيس بعثة منظمة أطباء بلا حدود في داغستان، أو "مارجريت حسن"، رئيسة مكتب منظمة "كير" الخيرية في العراق يمكن أن يُعدوا "حلفاء" لخاطفيهم. وكان يمكن لجنسية البعض الآخر – كالصحفيين الفرنسيين "كريستيان شينو" و"جورج مالبرونو" على سبيل المثال اللذين كانت بلدهما من أشد المعارضين

(25) Irène Herrmann, Daniel Palmieri, "*Les nouveaux conflits...*"، مصدر سابق، (الحاشية رقم 12)، ص 25 وما يليها.

(26) Cécile Hennion, "L'industrie du rapt, 'nouveau fléau de l'Irak', est en pleine expansion', *Le Monde,* 28 September 2004.

للتدخل المسلح في العراق – أن توفر لهم معاملة آمنة. والأهم من كل هذا، لم يُظهر لهم خاطفوهم أي اعتبار أخلاقي من أي نوع.

وهكذا، يبدو احتجاز الرهائن اليوم مزيجا متطرفا وغير متوازن من مقاربتي "الضيف" (hospes) و"الرهينة" (obses). ومرة أخرى يُؤخذ الرهائن بشكل انتقائي، ولكنهم يلقون معاملة سيئة. والواقع أن الرهائن لم يعودوا يمثلون أية قيمة لمختطفيهم ما عدا– ربما – القيمة التي يعطيها لهم عالمهم. بعبارة أخرى، تتحدد قيمة الرهينة من خلال التفاعل العكسي الذي يتقابل فيه عدم أهميتها بالنسبة إلى مختطفيها مع الثمن الذي يكون أهلها على استعداد لدفعه، وهو بالتالي الثمن الذي يعطيه لها مختطفوها. وتفسر هذه العلاقة الثلاثية معنى الاختطاف المستهدف وسوء المعاملة التي يتعرض لها من يقعون ضحية له.

التحول من "رهينة" (obses) إلى "شيء"

بقدر ما يستغل المختطفون قيم ومبادئ العدو، بقدر ما يخططون عملياتهم وفقا فقط للاهتمام الذي يتوقعون إثارته بين أهل الرهائن. فإن كان العدو هو الغرب، يركزون على استغلال عاملين أساسيين: قيمة الفرد في المجتمع الغربي، وتأثير وسائل الإعلام التي تُعد مصدرا إضافيا للضغط على الحكومات المنتخبة ديمقراطيا – والتي تعتمد هي نفسها على منتخبيها الذين يطلعون على المعلومات– الأمر الذي يعزز من قيمة الفرد.

لذلك يسهل فهم لماذا لم يعد اختيار الرهائن "الجدد" مبنياً على معايير القوة السياسية أو العسكرية كما كان الأمر في النظام القديم، وإنما أصبح متعلقاً بالأثر الذي سوف يحدثه على الرأي العام للخصم. ويعني هذا أن الأهداف المنتقاة تكون أفراداً يفترض أنهم سيثيرون تعاطفا عاما كبيرا، بسبب الصورة الإيجابية المرتبطة بمهنتهم (كالعاملين في الحقل الإنساني أو صحفيي الحرب أو العلماء) أو بسبب براءتهم التامة في ما يتعلق بالأحداث التي ذهبوا ضحية لها. والأسوأ من ذلك، أن براءتهم الفعلية هي سبب اختيارهم كرهائن، لأن هذه البراءة بالذات– بأشكالها المتعددة والمتراكمة بحيث يضيف كل شكل من أشكالها درجة أخرى من البراءة[27] – هي التي تحشد، عبر وسائل الإعلام[28] مثل هذا الدعم الكبير[29].

ولا يقتصر رد فعل الجمهور على الغضب أو الذعر، بل قد يصل الأمر إلى تماثله مع الحدث، مما يثير

(27) ثمة مثال على ذلك هو الرهينة البريطانية، "مارجريت حسن"، التي كانت في الوقت نفسه امرأة و تعمل في المجال الإنساني بينما تشمل الأنشطة التي تقوم بها مساعدة الأطفال الذين هم فوق كل ذلك أطفال عراقيون.

(28) كما يظهر في هذا العنوان لمقالة "روبرت فيسك": «What price innocence in the anarchy of Iraq ?»، الذي نشر في جريدة الإندبندنت، 17 نوفمبر/ تشرين الثاني 2004.

(29) غير أنه يمكن لهذا التكتيك أن يرتد أثره على المختطفين، كما حدث في حالة مدرسة "بسلان"، فرغم وجود جميع المكونات (براءة الضحايا، الذين كان أغلبهم من الأطفال، ووجود الإعلام واهتمامه، لاسيما الإعلام الغربي)، فإن أهم مكون كان غائبا ألا وهو القيمة التي تعطى لحياة الفرد – وهي فلسفة غير شائعة تاريخيا في المجتمع الروسي.

لديه خوفاً حقيقياً. وقد تم التعرف سريعاً إلى هذا التسلسل في ردات الفعل، وعرفت الجماعات الإرهابية في السبعينيات كيف تستغل هذا الخوف لزيادة الضغط الذي يحققه احتجاز الرهائن نفسه. وعرفت هذه الممارسات نطاقاً أوسع في التسعينيات، وتزامنت مع انتشار نموذج الحكومة الديمقراطية، وخاصة تحولها إلى برنامج للحملات السياسية الغربية، ولا شك أن كل ذلك ساهم في "تحسين" الأسلوب المذكور – الذي كان مطبقا بالفعل على نطاق واسع[30] – من خلال خلق الظروف الملائمة لإضافة عنصر آخر.

إن التباهي في نشر مُثل حقوق الإنسان والآليات السياسية اللازمة لدعمها، قد أدى في الواقع إلى الترويج لقيمة الفرد، وكنتيجة غير مباشرة لذلك، إلى الخوف من رؤية هذه القيمة موضع استهزاء. كما حرك، في الوقت نفسه، كراهية كل من يرون في هذا الاتجاه شكلا جديدا من الاستعمار. ومن غير المستغرب نتيجة لذلك، أن يقرر البعض القتال مستخدماً "أسلحة العدو".

ومن أجل التوصل إلى ذلك، يبذل المختطفون جهدا كبيرا لتحطيم شخصية الضحية، ومن ثم لا ينظرون إليها إلا باعتبارها تجسيدا لواقع أو مبادئ يحاربونها. وسواء كان الأمر متعلقا برموز (كالثقافة الغربية، أو الرأسمالية، أو المسيحية، إلخ) أم بمبادئ (كالديمقراطية، أو الحرية، أو عمل الخير، أو المعرفة، إلخ)، وسواء وجدت هذه الرموز والمثل تعبيراً لها في أصل الرهائن أو جنسيتهم أو عملهم، يُنظَر إلى هؤلاء الرهائن كتهديد يجب القضاء عليه لصالح نظرة للعالم معارضة تماماً لنظرتهم. وبهذا يجرد الرهائن من أجسادهم، وتنزع عنهم السمات الشخصية أو الإنسانية، وفي نهاية الأمر لا يعودون أعداء ولا حتى بشرا.

ومن المنطقي أن يؤدي نزع الصفة الإنسانية عن الرهائن إلى تحويلهم إلى أشياء، فيصبحون أشياء (res) يمكن استعمالها أو شراؤها أو بيعها[31]، أو "التخلص منها" في أي وقت عندما تصبح عديمة الفائدة – وخاصة أشياء متوفرة وجاهزة، ذلك أنه يبدو اليوم إن معين الرهائن المحتملين لا ينضب. وهذا الموقف ليس بالضرورة دليلا على تحول النزاعات إلى تجارة كما يصوره العالم السياسي الألماني "هرفريد مونكلر"[32]. فالمعاملة الوحشية التي كانت من نصيب الرهائن في العراق، على سبيل المثال، تظهر بوضوح أنه لم تعد لهم أي قيمة ذاتية لدى مختطفيهم – ولا حتى كأداة للضغط. ولم يعد يستخدم أخذ الرهائن باعتباره "أكثر الأسلحة وحشية ضد "المحتلين" الأمريكيين" كما كتبت إحدى المجلات الأسبوعية مؤخرا[33]، لأن هدف أي سلاح هو تأمين السيطرة ، ومن ثم إجبار العدو على التسليم، أو على الأقل على تقديم تنازلات. ولا يبدو أن هذا هو الهدف الذي سعى إليه مختطفو

(30) بدأ يبرز هذا الأسلوب من أخذ الرهائن على نطاق واسع أثناء الحرب اللبنانية في الثمانينيات، لاسيما باختطاف عدد من الصحفيين الفرنسيين وموظفين اثنين من اللجنة الدولية للصليب الأحمر.

(31) يعد شراء الرهائن ، وبيعها في ما بين جماعات المختطفين ممارسة قائمة في بعض أماكن الأزمات (في العراق على سبيل المثال).

(32) Herfried Münkler, Die neuen Kriege, Rowohlt, Reinbek bei Hamburg, 2002; وقد نشر المؤلف نسخة موجزة تحت عنوان، "حروب القرن الواحد والعشرين"، مختارات من المجلة الدولية للصليب الأحمر، 2003.

(33) Alain Louyot, "La stratégie de l'innommable", *L'Express*, 27 September 2004

"مارجريت حسن" وغيرها من الرهائن الأجانب. فلم يكن القصد هنا إلا ترويع السكان المستهدفين، كما يبرزه الإخراج والتصوير الرهيبان لإعدام الضحايا. وفي هذا السياق، يكون الرعب هو الذخيرة، والرهائن ليسوا أكثر من الأدوات السيئة الحظ لهذا الرعب.

الخاتمة

بالنظر إليها كمجرد "شيء" res بعد أن كانت "ضيفا" hospes أو "رهنا" obses، وصلت الرهينة الآن إلى المرحلة الأخيرة من التدهور لوضع لم تكن تحسد عليه أصلا. ولا يرجع السبب في هذا التدهور إلى المعتدين أنفسهم فحسب، وإنما يعكس أيضا عدم التوازن الحالي في النزاعات، وهو يعود فوق كل ذلك إلى سخرية مريرة من التاريخ. ففي الغرب ومع مرور الزمن تطور الإيمان بقيمة الفرد تطوراً واسعاً ومستمراً. وتأتي المطالبة بأن يكون هذا التطور المميز هو النموذج العالمي، وهذا ما يثير الاستياء في المجتمعات التي تعادي بشده النموذج المفروض، سواء أكان ذلك بدافع الإخلاص لهويتها أم بسبب ضعف بناها الأساسية. وفي رد فعل عنيف، يؤدي هذا التطور الاجتماعي نفسه إلى إثارة العداوة وابتكار أسلحة جديدة، أكثرها فاعلية هي تلك التي مدها بنفسه بالذخيرة. ولا عجب في أن يصبح الغربيون أنفسهم، بضميرهم الفردي، ومُثُلهم الديمقراطية، ومصادر معلوماتهم، وحقوقهم السياسية أدوات الهجمات التي يكونون هم هدفها. وهكذا، فإن تدهور دور الرهائن لا يتناسب تناسبا عكسيا مع تحسن وضعهم كأفراد فحسب، وإنما يرتبط أيضاً بهذا الوضع ارتباطا وثيقا. ويذلهم مختطفوهم لأنهم يؤمنون بأنهم يستحقون أن يعاملوا بكرامة. كما أن تمتع الرهائن بالبراءة ومعاناتهم هي التي تعطيهم مثل هذه الصورة المزعجة والمؤرقة.